تقديم

يسعد مجلة الآداب ان تستضيف الدكتور محمد مفتاح باعتباره واحداً من اهمّ العلامات النقدية والفكرية في الساحة الثقافية المغربية والعربية على حدّ سواء. كما تشكر المجلةُ الأساتذةَ المشاركين في هذه الندوة وترحّب بهم: الدكتور سعيد يقطين، والدكتور عبد المجيد النّوسي، والأستاذ بشير القمري، والأستاذ ابو بكر العزاوي.

إن التفكير في اقتحام مشروع «مفتاح» النقدي والفكري، في هذه الآونة بالذات، تتحكم فيه شروطٌ ذاتية، مرتبطةٌ بالمشروع في حدّ ذاته، وشروطٌ موضوعية ترتهن الى السياق العام الذي يتحرك ضمنه هذا المشروع. ويمكننا حصر هذه الشروط في النقاط التالية:

١) ما يطرحه النقدُ العربي من إشكاليات توظيف المناهج والنظريات العلمية الغربية. ذلك ان ايّ مشروع نقدي او فكري لن يصل الى نتائج ذات قيمة علمية ما لم يتمثّل هذه الإشكاليات ويطرح سبلاً واضحة للتعامل معها. وفي مشروع مفتاح نلمس رغبةَ تاديةِ دورِ المتفحّصِ للنظرياتِ والمناهج، والمدقّقِ في المفاهيم في بُعْدَيْها الفلسفي والتاريخي؛ وهو ما يضفي الجديّة على كل اعماله ويجعل منها ـ بحقٍّ ـ مدرسةً للباحث يتعلّم في فضائها كيف ينظر إلى المفاهيم ويستثمر النظريات ويؤسّس بنيان استراتيجيته الخاصة.

٢) لم تعد حركيةُ الفكر والنقد العربيّيْن محدودةَ الرقعة الجغرافية، بل اتّسعتْ مساحتُها لتشمل بؤراً جديدة في الوطن العربي، بدأتْ تساهم ـ وبشكل فعّال ـ في رسم معالم جديدة لتاريخ الثقافة العربية؛ وهو ما حقق ذلك التنويع والتعدّد في المقاربات والمعالجات. وفي مشروع مفتاح تحقق نوع من هذا التميّز.

٣) التفكير في تجربة تحدِّد، مسبقاً، استراتيجيتها وفق قواعد منهج علمي رصين. وهو ما يجعل التعاطي معها امراً صعباً، وذلك راجع الى عاملين اساسيين:

ا ـ تخلّف الجامعات العربية عن مواكبة التطوّرات العلمية الحاصلة في مجالات علمية متعدّدة.

ب ـ طغيان الطابع الحدسي الانطباعي على مجمل ما يُنتج من نقود؛ وهو ما جعل القارئ العربيَّ يرتاح لأساليب التلقّي الساذج للنصوص والظواهر ويتوقف عن بذل جهود إضافية لاستكمال معرفته بالنظريات والمناهج العلمية.

هذان العاملان جعلا الكثير من المشاريع الفكرية والنقدية العربية لا تلقى الاهتمامَ الكافي، فبقيتْ في حكم المهمّش واللامفكّر فيه. وفي اعتقادنا انّ مشروع محمد مفتاح واحد من هذه المشروعات العربية المحكومة باللامبالاة والتهميش نظراً لعلميتها ورصانتها ومخالفتها للذوق «النقدي» العربي العام.

ج ـ ضرورة الانخراط الفعلي والإيجابي في الحركة العلمية العالمية، والأخذ بالطرق الحديثة في التعامل مع الوقائع والنصوص. ولن يتمّ لنا ذلك إلا إذا انفتحنا على بعض ما تحقق في عالمنا العربي من إنجازات فكريّة وعلمية واوليناها ما تستحقه من الاعتبار والتقدير.

هذه هي جملة شروط تجعلنا نختار مشروعَ محمد مفتاح الفكري والنقدي موضوعاً للتحليل والنقاش. والوقوف عند هذا المشروع يمثّل، في تقديرنا، وقوفاً عند منعطف بارز في تاريخ النقد والفكر المغربيين والعربيين على حدّ سواء: فكلاهما بدا يخطّ لنفسه مساراً جديداً في استقصاء القضايا وتحليل الظواهر واستنطاق النصوص، وهو مسارٌ ينضبط لقواعد «التجريب» بمعناه الإيجابي، والمقصود: اختيارُ المناهج ورَوْزُ النظريات قَصْدَ خلقِ نوعٍ من التفاعل الإيجابي مع موضوعات الدراسة والتحليل.

يساهم محمد مفتاح في بلورة مشروع ثقافي متكامل ومتميّز يجمع ـ إلى جانب تمثّل النظريات العلمية الحديثة ومحاورتها وصياغةِ اسئلةٍ خاصةٍ بشروط التفكير العربي ـ الاهتمامَ البالغَ بالتراث باعتباره محمّلاً بهموم الذات والهوية العربيتين من جهة، ومنفتحاً على كل ما هو إنساني كوني من جهة ثانية. وقد وظّف الكاتب من اجل ذلك آلياتٍ منهجيةً شمولية، تبحث في الكليات والخصائص الكونية للتفكير الإنساني اكثرَ من انشغالها بإبراز معاقل الخصوصية الثقافية الضيّقة فيه.

هذه الرؤية المنهاجية الشمولية عند محمد مفتاح تقوم على المقاربة النسقية، سواء على مستوى التنظير او على مستوى الإنجاز. ومثل هذه الرؤية جعلت من محمد مفتاح باحثاً متعدّد الاختصاصات يدرك، منذ البدء، انّ النقد الادبي لم يفلح في تكوين نموذجه الخاص به. لذلك ارتاى التنقل بين العلوم باحثاً عن آلياتِ صناعةِ نظريةٍ ملائمةٍ، خاضعةٍ باستمرار، للاختبار وللروز وللتطوير.

آمن محمد مفتاح بانّ مشكلتنا الجوهرية كامنة في غياب قدرتنا على إنتاج النظريات والمفاهيم لسبب وحيد: هو اننا لا ننتج العلوم ولا نساهم في تطويرها. لذلك نراه يعمل جاهداً على تكييف مفاهيمه وفق استراتيجيةٍ محدّدةِ المعالم والأهداف. فرغم إيمانه بدور النقد الحَدْسيّ الانطباعي في إنتاج علاقة خاصّة بالنصوص، إلا انه يظلّ متمسكاً بضرورة ان يتسلّح الباحثُ بترسانةٍ مفاهيميّةٍ ونظريّة تساعده على بلورة استراتيجيته التي يختارها وتُحتِّم عليه تنظيمَ ادواته وإخضاعَ اعماله لمبضع الصرامة العلمية ولمعيار الرصانة المعرفية.

عَرَفَ مشروعُ مفتاح مساراتٍ متعدّدةً، سيشير إليها في ورقته التقديمية. وحتى لا نكرّر ما ستحفل به الورقةُ من تفاصيل عن هذه المسارات، وما سيعقّب به الأخوةُ الأساتذة الذين يشاركوننا مشروعَ مفتاح، إضافة الى الدراسة القيّمة التي خصّ بها الدكتور مفتاح مجلّة الآداب [وتُنشر في مكانٍ آخر من هذا العدد] ـ وهي الدراسة التي تؤشّر على عمق التحوّلات التي يعرفها، راهناً مشروعُهُ النقدي ـ أقول: لأجل عدم التكرار، سنكتفي، هنا، بالإشارة الى الأعمال الصادرة للدكتور محمد مفتاح والتي تشير من خلال سياقها الزمن والعناوين التي تحملها الى سمات هذه المسارات وخصوصياتها:

- في سيمياء الشعر القديم (دار الثقافة، ١٩٨٢)؛
- تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص (المركز الثقافي العربي، ١٩٨٥)؛
- دينامية النص: تنظير وإنجاز (المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧)؛
- ديوان ابن الخطيب: تحقيق ودراسة (دار الثقافة، ١٩٨٩)؛
- مجهول البيان (دار توبقال، ١٩٩٠)؛
- التلقي والتأويل: مقاربة نسقية (المركز الثقافي العربي، ١٩٩٤)؛
- التشابه والاختلاف: نحو منهاجية شمولية (المركز الثقافي العربي، ١٩٩٦)؛
- الخطاب الصوفي: مقاربة وظيفية (مكتبة الرشاد، ١٩٩٦).

نعطي الكلمة في البداية للدكتور مفتاح ليقدّم ورقته التاطيرية لهذه الندوة على أن ننتقل بعدها الى مرحلة التعقيب والمناقشة من خلال المحور الأول الذي خصّصناه للبحث في «أسس التعامل مع النظريات الغربية في الخطاب النقدي لمحمد مفتاح» مسترشدين باسئلة توجيهية: كيف يستحضر مفتاح «النظرية» في إنجازاته النقدية والفكرية؟ وما طبيعة العلاقة التي تربطه بالمفاهيم التي يوظفها؟ والى اي حدّ استطاع ان يضع نظرية تميّز خطابه النقدي والفكري؟

ع. لبيض